مدن بلا أسوار إلا غزة ... المفكر راشد الغنوشى

الاثنين 16 فبراير 2009 12:02 م

16/02/2009

الإنسان، فردا وجماعة، معرض إلى أخطار شتى، يمكن أن تفاجئه في كل حين فتفسد عليه هناءه، وقد تودي بحياته أصلا، لذلك تراه يبتغي جاهدا اللواذ بركن شديد، سواء كان معنويا من يقينيات إيمانية، أو كان اجتماعيا مثل ضروب التأمين، أو كان أمنيا وعسكريا مثل الحصون وأنواع السلاح، على اعتبار أن التدافع بين البشر والتظالم سنة ثابتة، وقل أن توقف أمام رغائب الاستكثار والأثرة، دون رادع مرهب وحاجز قوي صاد

فماذا أبقى لنا معشر العرب والمسلمين تطور تقنيات الحرب من حواجز وحصون لصد معتدين متربصين مستأثرين دوننا بتلك التقنيات؟

1- بقايا حصون فقدت وظيفتها:

لا تزال كثير من المدن التاريخية حريصة على الاحتفاظ بآثار وبقايا ومعالم من أسوارها شاهدة على عظمة تمدنها ورقي حضارتها وقوة منعتها، وذلك رغم فقدان تلك الأسوار أو بقاياها ما كان لها من وظائف عسكرية، دفاعا عما وراءها من ساكنة ومتاع في وجه كائد متربص، فيكون السور الحصن الأخير لوقف زحف الغزاة، لمدد تطول أو تقصر، لتنتهي إما باقتحام المدينة بعد ضيق أهلها بالحصار أو بارتداد الغزاة عنها يأسًا، كما ارتد الأحزاب عن تحصينات المدينة المنورة، وكما ارتد على الأعقاب جيش الصهاينة خائبا مدحورا عن "الحصون العتيدة" لغزة العزة

ورغم أن الحصون والأسوار قد فقدت وظائفها العسكرية أمام التطور المذهل لتقنيات المقذوفات المدمرة من بعد، فإن مبدأ تحصين المدن وحدود الدول عموما من أخطار العدوان المتزايدة، لا يزال الشغل الشاغل للقائمين على مهام الأمن القومي للدول، لحماية شعوبها وحدودها من كل عدوان محتمل والتصدي له، ورد مقترفيه على أعقابهم

وفي زمننا هذا تتوزع تقنيات حماية الأمن القومي بين وسائل دفاعية متعددة وأخرى هجومية، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي، ولكن ليس من بينها الأسوار الموروثة

2- مدن وأوطان مستباحة:

والحق أن الفجوة، بل قل الهوة التقنية الشاسعة بيننا وبين الغرب، ومنه دولة العدو الصهيوني، وبالخصوص في مجالات الصناعة الحربية، جعلت مدننا وقرانا وجملة حمانا كلأ مباحا، فلا الأسوار الموروثة بقي فيها ما يجدي نفعا خارج مجال السياحة، ولا نحن استعضنا عنها بتقنيات حربية مكافئة كفيلة بحماية سمائنا وما تحتها من بشر وحجر وشجر، بما يضع حدا لهذا الواقع البائس الذي انتهينا إليه، حيث يكاد يستوي الرجل والمرأة، الكبير والصغير، المسلح وغير المسلح، الحاكم والمحكوم، فكلهم إزاء الصواريخ العابرة والقاذفات العملاقة والطائرات التي لا طيار لها أطفال قصر "ولاية".

روى لي صديق جزائري كان قد قابل المرحوم طه ياسين رمضان إثر العدوان الأميركي سنة 1991على العراق، أنه ذكر له أن أصوات المضادات العراقية للقصف الأميركي المدمر التي

كانت تسمع لم يكن لها من وظيفة إلا الوظيفة النفسية المتمثلة في تزويد السكان المروعين من هول الحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم ليل نهار صبّا -ولا رادع- بجرعة من الطمأنينة بأن الدولة قائمة، وهي بصدد الدفاع عنهم! لكن مطلقي تلك المدافع المضادة أنفسهم والمسؤولين عنهم يعلمون يقينا أنها أعجز من أن تنال قاذفات العدو.
بل ذكر له أنه قد تبين لهم أن الدولة التي زودت العراق بهذه المضادات المتخلفة، قد سربت معلومات عنها دقيقة إلى الأميركان، بما جعل "الفارس" الأميركي الهمام في شبه نزهة فوق سماء عاصمة الرشيد، آمنا من كل خطر.
إن وضعا مثل هذا يكاد ينتفي معه معنى الحرب، بسبب الاختلال الكامل للتوازن العسكري، إذ ليست هي حربا، طائرة مقابل طائرة ودبابة مقابل مثلها وإنما هي عربدة على السكان المساكين اليتامى تشبه أن تكون رحلة صيد لحيوانات أليفة وليست حتى حيوانات برية مزودة بجهاز دفاعي لتوقي الأخطار.
إن وضعا مثل هذا قابل لأن يتكرر بل هو في حكم الأمر الواقع لو أن أي مدينة أو عاصمة عربية تعرضت لامتحان شبيه بالذي تعرضت له بغداد، بل لأقل من ذلك بكثير، وهو ما يجعل المدن العربية بما فيها العواصم في حكم الساقطة حربيا ضمن الإستراتيجيات الدفاعية المتبعة.

3- فماذا يعني ذلك؟

أ- إن الفجوة بل قل الهوة الساحقة بيننا وبين الغرب جعلت إستراتيجياتنا الدفاعية القائمة على جيوش تقليدية مسلحة بأسلحة مستوردة من نفس الجهة التي تمثل مصدر الخطر الأساسي على أمننا القومي، كدول حلف شمال الأطلسي وقاعدته المتقدمة إسرائيل، ضربا من العبث وخداع النفس وتبديد الجهود والأموال الطائلة في غير طائل، اللهم إلا تشغيل مصانع السلاح في دول الغرب وتدوير الأموال، وبخاصة أموال النفط بإعادتها إلى الخزائن الغربية عبر صفقات الأسلحة بعشرات، بل بمئات المليارات من الدولارات.
وما تلبث تلك الأسلحة أن ترسل إلى مستودعات الصدأ والإهمال لتحل محلها أخرى، يعلم من زودنا بها علم اليقين أنها لن تجدي نفعا في مواجهة أجيال من الأسلحة أبعد منها تطورا، زودت بها الجيوش الغربية ومنها ترسانته المتقدمة في إسرائيل.
وذلك ما أثبتته تجربة سقوط بغداد وقبلها بيروت، بما لا يبقي لهذا الضرب من الإستراتيجية الدفاعية من معنى غير تشغيل المصانع الغربية كجزء من ضريبة التبعية والاستلحاق، وغير الدفاع عن الأنظمة القائمة في مواجهة هبات شعوبها، باعتبار ذلك آخر حصن تعتصم به قلاع الظلم إذا فشلت في المهمة جحافل الشرطة السرية والعلنية، وهي الدرع الأول والمصدر الأعظم لشرعية الأنظمة، بعد الدعم الخارجي.
ولذلك ترى ميزانيات وزارات الداخلية في تصاعد مستمر حتى فاقت ميزانيات وزارات الدفاع، بنفس نسبة تدهور شرعية الأنظمة. نحن أمام جيوش تشبه أسوار المدن القديمة فاقدة للوظيفة الأصلية التي جعلت لها وما بقي لها غير مهام استعراضية أو بوليسية قمعية، وأستر لنا ولها أن لا تتورط في حرب حديثة فتفضحنا. ولذلك أخطأ من استغاث بها لإنجاد غزة. فلم الإبقاء عليها إذن؟
ب- لا للاستسلام: الحقيقة أن وضعية الاختلال بين أمتنا وأعدائها ليست ظاهرة جديدة وإن كانت قد تفاقمت، بل إن معارك أمتنا الكبرى التي ابتدأ بها مسار تاريخنا وأسست لأمجاد الإسلام من بدر إلى الأحزاب إلى القادسية والنهروان.. وحتى معارك الاستقلال.. ومعركة تموز 2006 وأحدثها معركة غزة.. كلها اتسمت بالاختلال في العدد والعدة لصالح أعدائنا، وجاء النصر فيها بعد فضل الله ورضوانه، بتعديل لميزان القوة عبر تبني إستراتيجية دفاعية أخرى تنهل من ثقافة مغايرة لثقافة العدو. يمكن تلخيصها في ضوء تلك المعارك وآخرها معركة غزة فيما يلي:
أولا: الحرب الشعبية حيث يتوزع السلاح بين المواطنين -كما هو حاصل في سويسرا- بديلا عن الجيوش النظامية، حيث تحتكر الدولة امتلاك السلاح واستعماله.
والغريب أن الدولة العظمى في العالم يفرض دستورها حق المواطن في امتلاك السلاح، وهي أكثر دولة أمنا من التهديد الخارجي، في حين يحظر السلاح على المواطنين في بلاد تعيش في مرمى أشرس عدو وأفدح سلاح.
وفي فلسطين كما في البوسنة كما في كل بلد من بلادنا مهدد، يكون القرار الدولي عند تدخله، هو تجريد مواطنينا من السلاح، مقابل تزويد العدو بأفدح الأسلحة، حتى نذبح كالنعاج، كما فعل بفلسطينيي 1948وأهل سربرنيتشا.
أوليس عجبا أن يتولى النظام الدولي تسليح مائة وخمسين ألفا من القوى النظامية التابعة

شكليا لسلطة رام الله، بينما يتجند حلف شمال الأطلسي ومعه أركان النظام العربي لمحاصرة غزة وتجريدها مما يمتلك شعبها المقاوم من أسلحة بسيطة، ومراودتهم بصفقة الغذاء مقابل الاستسلام، في حين أنه لا أحد يتحدث عما يمتلكه الكيان، الثكنة المحشوة بكل ما جادت به حداثة الدمار الغربي؟

ثانيا: التوفر على ثقافة وإرادة المقاومة حتى الموت بديلا عن الاستسلام لثقافة ميزان القوة، ورغم أنه لكل أمة ثقافتها الخاصة بالمقاومة فإن أمة الإسلام تتوفر على أعظم ثقافة للصمود والفداء بما يجعل حربنا ما دامت دفاعا عن الحق وليست عدوانا على أحد حربا عادلة أي جهادا في سبيل الله، وهو سنام الإسلام وتاجه، والإسهام فيه بالمال بالكلمة بالنفس فريضة على كل مسلم إذا هوجمت دار الإسلام

والموت في ساحته شهادة هي أعلى وسام يعلق على صدر مسلم، وأسمى ما يتمنى الإنسان لنفسه ولولده، والأم لابنها، ومفخرة لأهله في الدنيا وشفيع لهم يوم القيامة، حيث يتبوأ ظلال عرش الرحمن ويكون جارا للنبي عليه السلام

ولذلك لا عجب أن ترى الأمهات الثكالى في غزة شاكرات مستبشرات بفضل الله عليهن، فهل من عجب بعد ذلك أن يصمد أهل غزة في وجه ما حاق بهم من دمار وزلازل عظمى؟ وهل من عجب في المقابل أن تتركز إستراتيجية الغرب وأتباعه بعد تجريد شعوبنا من السلاح، في تجريدها من ثقافة المقاومة عن طريق العبث ببرامج التعليم والإعلام وتنقيتها من كل ما له مساس بالجهاد والاستشهاد، مقابل إشاعة ثقافة الفراغ والتحلل وستار أكاديمي حتى في أيام الرصاص المصهور الذي كان يصب صبا على أهل غزة تواصل الإعلام الهابط في تونس وأمثالها، وتصاعد "جهاد" البوليس في قمع غضب الشعب

ثالثا: مجتمع المقاومة مجتمع الحرية والعدل: إنها لحكمة بالغة في المأثور العربي تلك التي نطق بها الفارس الفحل عنترة بن شداد عندما غزيت قبيلته، وهو لا يحرك ساكنا فلما انتدبه والده للقتال، أجابه على الفور شاكيا قيد العبودية في معصمه "إن العبد لا يحسن الكر والفر" فأدرك الوالد قوة حجته وما يشكوه، فقال له "كرّ وأنت حر" فانتفض كالأسد -مثل شعب غزة بعد خلاصه من قيد الأمن الوقائي- ورد الأعداء على أعقابهم، فبقيت الكلمة مثلا، وهي تشير إلى سنة ثابتة، أن الشعوب المستعبدة للطغيان ليست مؤهلة للمروءات والبطولات والإبداعات في أي مجال، بل للهزائم والنفاق ومذمومات الأخلاق

إن مجتمعا لا يتمتع فيه المواطن بحق الكرامة والحرية ليس مستحقا للذود عن حياضه، بل قد يكون بمكان الباحث عن سبيل للخلاص منه وطعنه من الخلف انتقاما لكرامته، كما فعلت بعض المعارضات

وذلك مقابل ما كان يتمتع به جندي الفتح الإسلامي من إحساس عال بالكرامة، حتى كان يقف في حضرة قائد الإمبراطورية الفارسية شارحا أهداف الجهاد، "جئنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة". في حين كانت جحافل جند فارس توثق بالسلاسل لمنعها من الفرار

وهل يشك أحد اليوم في أن الجندي في جيوش الأعداء يتمتع بقدر من الكرامة يفتقد الجندي في جيوشنا أقل القليل منه؟ فهل من عدالة الله أن تنتصر مثل هذه الجيوش الراسفة وشعوبها في الأصفاد؟

وهل من عجب في أن نبتة المقاومة التي أخذت تستعيد للأمة كرامة فقدتها على يد الجيوش، إنما ظهرت في مجتمعات عربية وإسلامية ذات سمة مشتركة محددة ألا وهي غياب سلطة مركزية مسيطرة مثل أفغانستان والصومال ولبنان وفلسطين؟

ولقد أدرك أعداء الإسلام خطر هذا الفراغ في فلسطين الذي تخلقت في رحمه الانتفاضة وتطورت إلى مقاومة، فاستحدثوا سلطة أوسلو، فكان سداها أجهزة أمنية دربت وسلحت على يدهم، وكسيت بكساء مدني والهدف واضح هو الإجهاز على المقاومة والتستر على الاحتلال "احتلال لوكس". ولولا ما سمي بالحسم ما كانت مقاومة ولا نصر في غزة

كيف يرتفع لك بناء إذا كنت تبني وغيرك يهدم؟ أنى للمقاومة أن تنمو وتتطور وتتجهز ماديا ومعنويا في ظل سلطة قامعة معادية لها؟ نصر غزة هو ابن الحسم

نصر غزة هو الثمرة لما وفره الحسم من تمحض "سلطة" في خدمة المقاومة، هي في الحق قيادة مقاومة، في مجتمع مقاوم، تنعدم فيه الفواصل بين مقاوم بالسلاح ومقاوم بالخدمة المدنية، قيادة تعيش مع شعبها في مخيماته وتصلي في مساجده وتؤمه في صلواته بما يحرك مخياله الجمعي مستحضرا نموذج القيادة النبوية والراشدية

إنه مجتمع الحرية مجتمع المقاومة مجتمع العدل وحذار من أن تحيف نشوة النصر على أصل

العدل والحرية، فيبدأ السير صوب أوسلو بدل السير صوب القدس
رابعا: تطوير صناعة حربية للمقاومة: إن تجارب المقاومة في لبنان وفلسطين قد أثبتت جدواها في صناعة ميزان قوة، بما استرد للأمة كرامة مرغتها في التراب جيوش وأجهزة قمع
وما كان لها أن تحقق ذلك لولا تعزيزها لما توفرت عليه من إرادة وعقيدة المقاومة وقوة التنظيم والضبط، تعزيز ذلك بنجاحها بعد سعيها الدؤوب والمستمر في الحصول على أسلحة بسيطة ولكنها فاعلة، مزيج من التهريب والتطوير، مستفيدة مما لديها من كفاءات علمية هندسية متفوقة، صنعت رغم بساطتها ميزان قوة رعب مع العدو فشلت في الوصول إليه جيوش العرب مجتمعة
فماذا بقي لتلك الجيوش العالة من دور، وهي عاجزة عن تقديم الحماية لعواصمنا ومدننا بمثل ما فعلت المقاومة في غزة فأعلت أسوارها وعززت منعتها في مواجهة أعتى جيش في الشرق الأوسط؟ ولم لا يعاد بناؤها وفق إستراتيجية المقاومة؟ وذلك يفترض تغييرا جذريا لأنماط مجتمعاتنا، وهو -من دون وعي بمكر الله سبحانه- ما تدفع إليه الإستراتيجية الغربية العشواء، في حربها على الإسلام والإسلاميين والديمقراطية، مسوقة بجنون، لدعم غرور إسرائيلي مهلك "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين".